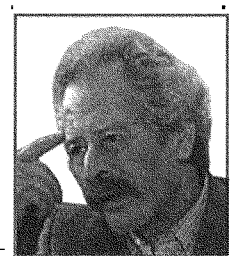

محمد شكري...

صعلوك الأدب الحديث

الكاتب الذي فاته أن يكون ملاكًا

□ حسن بحراوي

تقدّم الآداب في الصفحات الأربع عشرة التالية ملفًا صغيرًا عن الكاتب المغربيّ محمد شكري، الذي رحل عنّا في نهاية عام ٢٠٠٣. والمشاركون هم الدكاترة: حسن بحراوي، ومحمد عبيد الله، وفريال غزول، وماجدة النويهي.

تقديم

برحيل محمد شكري (١٩٣٩ ـ ٢٠٠٣) يكون قد أُسدل الستارُ على تجربة أدبية وحياتية استثنائية خاضها هذا الولدُ الأميُّ في أعقاب نزوحه عن قريته في أقصى الريف المغربيّ هربًا من المجاعة وتسلُّط الاستعمار الإسبانيّ، واستقراره في مدن الشمال (تطوان، العرائش، ثم طنجة) حيث سيعيش حياةً شديدةَ الاضطراب في أوساط المهرِّبين والنشّالين والحشّاشين ودُور الدعارة وغيرها من مكوِّنات المباءة البشرية التي سيؤثِّث بها فيما بعد أعمالَه السيرية والسردية. وسوف يُقْبل شكري، بعد أن جاوز العشرين، على تعلُّم الفصحى؛ وكان قد أتقن الحديثَ شفاهةً باللغات الإسبانية والإنجليزية والفرنسية خلال مخالطته للجالية الهائلة المتعددة الجنسيات المقيمة بمدينة طنجة، وأثناء تعقُّبه للسيّاح الأجانب.

وتبدأ المرحلة الثانية والأساسية من حياة شكري بانخراطه في سلك التعليم مدرِّسًا في الطور الابتدائيّ، وشروعِه في تطوير مَلَكاته الثقافية والأدبية وتدبيجه لمحاولاته الأولى في الكتابة الإبداعية. وقد واجه منذ البداية مصاعبَ غيرَ مألوفة لاختراق مجال النشر في الصحافة الأدبية بالمغرب؛ فقد كان الطابعُ العاري لعوالمه التخييلية ونزعتُه الفضائحية في التفكير والتعبير يجعلان محرِّري الملاحق الثقافية يتلكأون كثيرًا قبل أن يُقْدموا على نشر بعض قصصه. ولكنّ هذه الضائقة لن تعمِّر طويلاً؛ ذلك أنّ شكري سيَنْجح في اختراق أعرق قلعة أدبية في الوطن العربيّ أواخرَ الستينيات عن طريق نشره قصصًا قصيرة في مجلة الآداب البيروتية الذائعة الصيت، فيكتسب شرعيتَه الأدبيةَ التي لن يعود أحدٌ قادرًا على منازعته فيها.

وسوف يكون لقاؤه بالكاتب الأميركيّ، نزيلِ طنجة، پول بولز في مستهل السبعينيات تدشينًا لرحلةٍ أخرى يُسمع فيها صوتَه وإبداعَه الحرّيفَ المذاقِ إلى زمرة القراء الغربيين، من خلال ما ترجمه له هذا الكاتبُ المعروفُ عالميًا من نصوص كانت مصدرَ احتفاءٍ مشهودٍ من طرف المجلات الأدبية الأمريكية والإنجليزية. وسيُتوَّج هذا اللقاءُ الأدبيُّ مع بولز بإصدارهما سنة ١٩٧٣ الصيغةَ الإنجليزيةَ لكتابه المشهور **الخبز الحافي**، ثم بإصدار مجموعة من المذكّرات الأدبية سَجَّل فيها لقاءاته مع زوّار طنجة من عمالقة الأدب العالميّ مثل الفرنسيّ جان جنيه والأميركيّ تينيسي ويليامز.

ولكنّ لحظة الانطلاق المدوّية التي ستعطي لشكري مكانتَه الراسخةَ وصيتَه العربيَّ والعالميَّ ستتزامن أوائلَ الثمانينيات مع صدور الترجمة الفرنسية لروايته **الخبز الحافي**. فعن طريق هذه الترجمة سيبدأ الاهتمامُ بشكري كظاهرةٍ أدبيةٍ خارجةٍ عن المعتاد، وسيستضيفه بيرنار بيفو ضمن القناة الفرنسية في برنامجه الثقافيّ اللامع «أپوستروف،» وستنتقل سيرتُه الروائية **الخبز الحافي** من طبعة ماسپيرو المحدودةِ الانتشار في النخبة المثقفة إلى الظهور في طبعات شعبية بعشرات الآلاف من النسخ وبلغاتٍ لم يَسْبق أن استضافت نصوصًا عربيةً من الأدب الحديث كالفنلندية والسويدية واليابانية.

ومن المفارقات أنّه حتى بداية الثمانينيات لم يكن النصُّ العربيُّ الأصليُّ لهذه الرواية قد ظهر إلى الوجود. بل إنّ شكري لم يحاول نشرَه بالعربية أصلاً، ليقينه المسبَّق بصعوبةِ ـ وربما باستحالةِ ـ أن تَسْمح السلطاتُ المغربيةُ بصدور عملٍ بكلّ هذه الجرأة ولذلك ستلاقي الطبعاتُ المتتالية التي أصدرها على نفقته الخاصة استقبالاً هائلاً وغيرَ مسبوقٍ في تاريخ النشر المغربيّ. وستعْمد آلةُ الرقابة على المطبوعات إلى منعها من التداول في المغرب، الأمرُ الذي سيثير عاصفةً من الاحتجاج في الأوساط الثقافية اليسارية والتقدمية. ولكنّ **الخبز الحافي** ستواصل انتقالَها بين الأيدي منسوخةً بل ومخطوطةً أحيانًا، إلى أن تَمكّنَ اتحادُ كتّاب المغرب قبل أربع سنوات من إعادة الكرّة فيما يُشْبه امتحانَ القوة مع السلطات بنشرها في طبعة أنيقة وتوزيعِها علانيةً في إحدى دَوْرات المعرض الدوليّ للكتاب الذي يقام بمدينة الدار البيضاء.

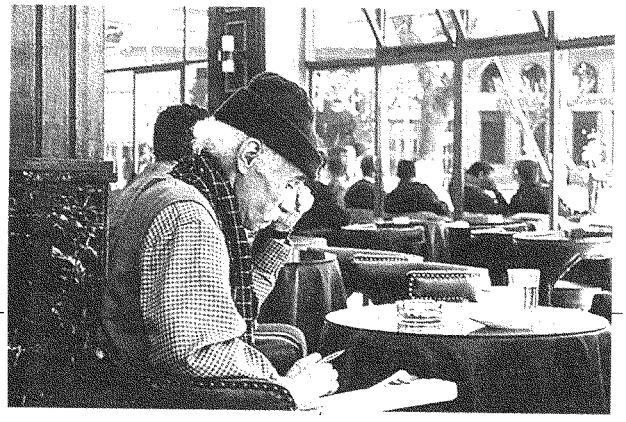

تطلّع شكري إلى موقع اجتماعيّ يحقّق له بعض الاستقرار الوجوديّ في المدينة الكوسموبوليتية. طنجة

كان من نتائج هذه السمعة العالمية التي أدركتْ شكري في غير توقُّع أو استعداد منه أنْ أصْبح يَشْعر بمسؤولية خطيرةٍ ملقاةٍ على عاتقه ويتردَّد عشرات المرات قبل أن يخطَّ الكلمةَ الواحدةَ على الورق، حتّى إنَّه توقَّف تقريبًا عن الكتابة قرابةَ العشرين سنةً تحت ضغط الشهرة القاصمة التي نابته من نجاح **الخبز الحافي**. وهكذا لن يَظْهر القسمُ الثاني من سيرته الذاتية، **زمن الأخطاء**، إلا مع بداية التسعينيات، أيْ بعد أن استعاد عافيتَه الإبداعيةَ ووصل إلى قمة مجده الأدبيّ في هذه السيرة، التي ظَهرتْ أيضًا في طبعة عربية بلندن تحت اسم **الشُّطّار**، سيواصل شكري سَرْدَ أمشاجٍ من حياته وتجربته التعليمية العصاميةً التي خاضها في ظروفٍ جدّ صعبة أملاً في الخلاص من التشرد والضياع وتطلُّعًا إلى موقع اجتماعيّ يحقّق له بعضَ الاستقرار الوجوديّ ويَضْمن له أن يغادر المدنَ والأحياء الهامشيةَ للإقامة في المدينة الكوسموبوليتية. طنجة.

وسيواصل شكري بعد ذلك نمطَ حياته الاستثنائيّ، كأسطورة حيةٍ وككاتبٍ جدّ مقروءٍ في جميع الأوساط. ولكنَّه سيجد صعوبةً متزايدةً في الاستجابة لطلبات القنوات التلفزية العالمية، أو في تلبية الدعوات التي تصله من مختلف بقاع العالم للحديث عن تجربته الحياتية والأدبية. وفي خضمّ هذه الرحلات المكوكية ستنهار مقاومتُه الجسدية وهو بألمانيا أواسط التسعينيات، وستَكْشف الفحوصُ الطبيةُ عن إصابته ببداية تشمُّع للكبد، فينصحه المعالجون بالكفّ عن الشراب وتركِ حياة السهر إذا أراد أن يستعيد قوتَه ويواصلَ عطاءه الأدبيّ. غير أنّ شكري كان قد ارتبط بنمط حياة يَصْعب عليه تغييره. ومع أنَّه أحسّ بهشاشة وضعه الصحيّ، فإنَّه لازم طريقتَه المألوفةَ في الإقبال على متع الحياة وإدارةِ ظهره لوصايا الأطباء. وكان مبرِّره في ذلك أنَّه عاش حياةً ليليةً عريضةً تُزهِّده في التشبُّث بقشة الحياة البئيسة التي يتمسَّك بها الناسُ «النهاريّون.» وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياته سيَقْبل شكري، بطيب خاطرٍ غيرِ معهود، دعواتِ العديد من الجمعيات الثقافية المغربية التي سعت إلى إقامة ندوات دراسية وتكريمية لأدبه وشخصه. وأثناء ذلك سيفاجَأُ بمصاعبَ في التنفس لن يتأخر الأطباءُ في ردّ سببها إلى ورم سرطانيّ في ملتقى القصبتين، وسيَخْضع لإقامة استشفائية طويلة برعايةٍ ملكيةٍ وإشرافٍ شخصيٍّ من وزير الثقافة واتحاد كتّاب المغرب.

تسارعت الأحداثُ بعد ذلك، بين أملٍ في الشفاء يتضاءل حينًا ويتقوّى أحيانًا أخرى. وظلت صورةُ شكري تملأ المشهدَ الثقافيَّ المغربيَّ بمزيد من التألق والشهرة. ولكنّ عمرَه الخاصّ لم يعد يتّسع لكلّ هذا الاهتمام الآتي من جميع الآفاق، بل إنَّه ضاق حتى عن الإبقاء عليه قيدَ الحياة، فأسلم الروحَ زوالَ يوم السبت ٢٠٠٣/١٢/١٥

من الهامشية إلى المركزية

سنَفْترض أنّ أدب الهامش هو كلّ أدبٍ يُنتَج خارج المؤسسة، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم ثقافية... إلخ. وهو بذلك يقع بعيدًا عن الرعاية والاحتضان، بل ويجري العملُ على نبذِه من دائرة الضوء، وقد تُسلَّطُ عليه الرقابةُ إذا ما بدا أنَّه يتجاوز الخطوطَ الحمراءَ المنبَّهَ عليها. ولما كانت الأجناسُ الأدبيةُ هي نفسُها صنيعةَ المؤسسة الرسمية فإنَّها تَعْتبر هذا الأدبَ كائنًا منبوذًا ومهمَّشًا، وذلك لعدم انضباطه إلى توجيهاتها، ولاختراقه لبنياتها الموجَّهةِ من طرف التقليد الأدبيّ المتعارَفِ عليه، تستوي في ذلك كلُّ الأنماط المسمّاة «ما تحت الأدب»، من شعر الصعاليك الجاهليّ، إلى الشعر المناوئ للدعوات الإسلامية، وأدبِ الخوارج الأمويّ، والأدبِ ذي النزعة الشعوبية، والمقامات الشعبية، والكتابات الشبقية والصوفية وغيرها.

والحال أنّ الإلحاح على تعريف مفهوم «أدب الهامش» يتنافى مع هامشية هذا الأدب نفسه؛ ذلك أنّ الإمعان في إخضاعه للتجنيس يناقض أصلَ طبيعته. بيْد أنَّه يُمْكننا، على وجه التقريب، تحديدُ «كتابة الهامش» استنادًا إلى مصطلحات «نظرية التلقّي» الشهيرة بوصفها تلك الكتابةَ التي تنزاح عن أفق انتظار القارئ النموذجيّ أو المثاليّ... أيْ انَّها تخالف ما يَتوقَّعه منها من تكريسٍ للقيم الأدبية السائدة، ومسايرةٍ للرياء الأخلاقيّ الذي تتداوله الآدابُ وتعلي من شأنه تقليديًا. أما نتيجةُ هذا الانزياح فتتمفصل إلى موقفين متناقضين يَصْعب تبريرُهما منطقيًا: استقطاب النخب القارئة ذاتِ الميول الانقلابية المناهضةِ أدبيًا للثابتِ المكرَّس اجتماعيًا وأخلاقيًا؛ واستثارة الرقابات الرسمية التي تمثِّلها الأسرةُ والمجتمعُ والدولةُ وكلُّ ما يَدْخل مَدْخل «المؤسسة» بأوسعِ معنًى ممكن.

وهـذا بـالـذات هـو الـوضـع الـذي نـاب كتـابات محـمد شكري على طول الوطن العربيّ وعرضه. فـقـد حظيتْ بالتفافٍ كاسحٍ وغيرِ مسبوق في العصر الحديث. إذ عداً الطبعات العديدة من أعماله التي وُزِّعتْ في المغرب والمشـرق ـ وأحـيـانًا بدون إذنه ولا علمـه ـ هناك العـديدُ من نصـوصـه التي تُصَوَّر وتُتداوَل بطريقةٍ شبهِ سرية في عموم المنطقة العربية، بما فـيـهـا المناطقُ المعروفةُ بـ «طهـرانيـتـهـا» الـثـقـافـيـة. وفي مـقـابل ذلك تجـري مـحـاصـرةُ كـتـاباته من طرف الرقـابات العربية الأكثر انفتاحًا، كما في المغرب ومصر المعروفتيْن تاريخيًا بالتساهل مع أنماط الكتـــابات الواردة من الشـــرق والغرب في نماذجها الأشدِّ راديكاليةً.

ولكنّ شكري لا يأبه لكلّ هذه الضـجـة القائمة حول أعماله وشخـصيـته، بل ينصـرف بتـصـمـيم خـرافيٍّ إلى شـؤونه الأدبية وغير الأدبية، مقتحمًا تخومًا في الإبداع مـا كـان يجـرؤ أحدٌ قَـبْلَه على اجتراحها، مدجَّجًا بقوةٍ وذكاءٍ خارقيْن يُسْعفانه على الاقتراب من جمرة الواقع المغربيّ والنفخ في أتونِها غـيـرَ هيّاب. هوذا شكري الذي ناصبـتْـه المؤسـسـةُ العـداءَ، فـبـادلـهـا النكايةَ، وأخـرجَ لـهـا لسانَ الفضيحة، منتقمًا لنفسه ولقبيلة الفقراء التي ظل يَسْعد بالانتماء إليها.

فلقد انحـاز شكري إلى الـهـامش العـزيز إلى قلبـه. ولعلّ اسـتـلذاذَه الـعـيشَ في الـهـامش الوجـوديّ هو الذي قـاده إلى الهامش الأدبيّ، أيْ إلى صميم المعترك الأدبيّ. ولا أقلّ من أن نشير هنا إلى هذا العبور الذي تواشجتْ فيه الحياةُ بالأدب.

● فقد عـانى التـهـمـيشَ اللغويَّ في طفـولته عندما كـانت لهجتُـه الريفيةُ قَـدَرًا يطارده على الدوام، حـتى راح يَسْـعى إلى مـصـاحـبـة المنبـوذين لـغـويًا ـ مـثله مـثل الأطفـال الغـجـر والأندلسيين ـ ليتلافى تلك النظرةَ الانتقاصيةَ والاحتقاريةَ من الطنجاويين الأصلاء.

● وعانى التـهـميشَ الاجـتـمـاعيَّ إلى حـدود العشـرين من عمره، أيْ إلى حين انخـراطه في التعليم الذي أنقذه من العيش فريسةَ الجهلِ والرعونةِ والمبيتِ في المقاهي والردهات.

● وعانى هامشَ الموظف المكتبيّ البسيط الذي يعيش على إيقاع الحوالة الشهرية وكثرة العيال، قبل أن تصبح الكتابة سبيلَه إلى الارتقاء الاجتماعيّ وكسبِ احترام الآخرين، تشبُّهًا بالكاتب الكبير محمد الصباغ الذي شجَّعه على ارتياد هذا العالم المجهول ونبذِ حياةِ الموظَّف القَنُوع

● وأخيرًا فقد عانى تهميشَ الناشرين الذين رأوا في نصوصه خروجًا عن الأدب «القويم.» قَبْلَ ذلك لم ينلْ نظيرَ الطبعة الإنجليزية الأولى من **الخبز الحافي** أكثرَ من مائة جنيه عرف كيف يبدِّدها بأسرع من رمشة عين. كما لم يكن مترجمُه إلى الإنجليزية پول بولز يمكِّنه من حقوقه الزهيدة التي تنوبه من ترجمات نصوصه إلا بعد جهد جهيد، أملاً ـ كما يقول ـ في أن يَدْفع به الفقرُ إلى مزيدٍ من الكتابة.

وبذلك كان الهـامشُ رفيقًا وأنيسًا لشكري، طفلاً وراشدًا وكاتبًا. فقرَّر عدمَ التـخلّي عنه نهائيًا ومـهما تكن الظروف. وإذا مـا صدّقنا تصريحات شكري، فإنّه بصنيعه ذاك كان يردّ الاعتـبارَ إلى طبقـة المهمَّشين التي انتمى إليـها وفاءً لمبدإه الثابت في عـدم خيـانتـها، لأنَّ خيانتها تعني لديه خيانةَ نفسه (**القدس العربيّ**، ٢٠٠٢/١/٣١).

الآن، وقد سَرَدْنا هذه الأمشـاجَ من سيرة الحياة والكتابة، يهمُّنا التساؤلُ عن كيفية ترجمة الهامشيّ على مستوى التحقُّق الأدبيّ، أيْ عبر نصوص شكري السيرية والواقعية.

ـ فعلى مستوى التمظهر الأدبيّ والجماليّ تغادر كتاباتُ شكري منطقةَ الأدب المهذَّب إلى منطقة الأدب المتمرِّد والمناهِض والانقلابيّ. ومن ذلك أنَّنا معه نبتعد عن موضوع الأطروحة الوطنية والإنسية المغربية التي راجت مع كُتّاب من قبيل عبد الكريم غلاّب وعبد الله العروي ومبارك ربيع، ونَنْزل عميقًا إلى أحشاء المغرب الآخر المنسيِّ والمهمَل واللامفكَّر فيه، مغربِ المهمَّشين والمنبوذين والرّعـاع وأبناءِ السـبيل الذين جَـعَلَ شكري من أدبه ناطقًا باسـمـهم في السـرّاء والضـرّاء. ومع أنَّنا نصادفهم في نصوصه وهم يتقلَّبون في ألوان من الشقاء التي لا تُتصوَّر، فإنَّهم كانوا ـ بما يَمْحَضهم إيّاه من إحساسه وأريحيته الدافقة ـ يتحوَّلون إلى كائنات أثيرة تنأى عن مَباءتها السحيقة وتَرْفل في المطلق الإنسانيّ بكامل عنفوانها وانطلاقها.

ـ ومكانيًا، تَسْتبدل نصوصُ شكري الفضاءَ المخمليَّ الذي يحتفي بالجميل والأنيق والحميميّ بالفضاء التحتيّ والهامشيّ، أيْ فضاءِ العتبة والقبو والشارع، حيث تَمْرح شخوصُه في ذلك الحضـيض الطوبوغـرافيّ والاجـتـمـاعيّ الذي يَفْـتقر إلى شـروط الحيـاة الإنسـانيـة الكريمة، فتصبح فريسةَ التمييز والحجز والموت المؤجَّل

بول بولز ترجم سيرة شكري إلى الإنكليزية، وبها صدرتْ **الخبز الحافي** أول مرة

بهذا المعنى الاجتماعيّ والأدبيّ تتحقق هامشيةُ أدب محمد شكري، أيْ مركزيتُه التي أسعفتْه على تدبير مجده ككاتب عصاميّ لكونها تأخذ بمبدإ **الحرية في المقام** الأول ـ وهي حرية أتاحت له مجْموعةً من الانتقالات غير المتوقعة: من اللغة الريفية الأمّ إلى اللغة العربية التي استضافته بأريحية مستحقّة، ومن الأمية المطلقة إلى المعرفة الموسوعية، ومن المحلية الضيقة إلى العالمية الرحيبة، ومن الكتابة المسكوكة المؤشّر عليها إلى النصّ المتحرّر والمفتوح على كلّ الممكنات.

لقد شيّدَ شكري على مدى أكثر من ثلاثين سنة من المثابرة والجهد نموذجًا جديدًا للجدية الأدبية بعيدًا عن المجرّات الإيديولوجية وجاذبيتها المعلنة والمضمرة. ألم يعلن أكثرَ من مرة عدمَ انتمائه إلى الحساسيات السياسية الرائجة، من دون أن يعني بذلك انتسابَه إلى أية نزعة عَدَمية مقيتة؟ ألم يصرّح غير مرة بأنّه ليس كاتبًا مغربيًا أو عربيًا إلاّ بمقدار ما هو كاتبٌ كُوْنيّ؟ مقابلَ ذلك، يُمْكن اعتبارُ شكري من روّادِ مَنْ يسمّيهم رولان بارت بـ «حِرَفيّي الأسلوب،» أيْ أولئك الكتّاب من أمثال بَلْزاك وجيدْ الذين كانوا يتشبّهون بالصّانع الحِرَفيّ الذي يأنف الارتجالَ والتسرّعَ في الإنتاج ويُقْبل على أدبه مثلما يُقْبل الصانعُ التقليديُّ على تُحفه الفنية بكامل العناية والصميمية. ومن ذلك ما يَذْكره شكري من أنّه كان يعاني طويلاً ليَصُوغ عبارةً أو يَنْحت لفظةً. أوَلَمْ يتوقف عن الكتابة قرابةَ العقديْن بين نشر **الخبز الحافي** وزمن **الأخطاء** أملاً في أن يقدّم عملاً يرضى عنه ويناى به عن الاستعجال، علمًا أنّ الكتابة كانت موردَه الوحيدَ بعد أن اختار التقاعدَ النسبيَّ من عمله الإداريّ؟

وربما أمْكننا الآن، وقد صادفْنا بارت، أن نستبدل «كتابةَ الهامش» لدى شكري بـ «الكتابة العارية» أو «الكتابة البيضاء» كما عند كافكا وباتاي ولوتريامان، وهي تلك الكتابة الحيادية المبنية على التباعدُ واختراق المسافة «الأخلاقية» التي تسيِّج الأدبَ بتخوم غير أدبية. ويَبْرز هذا التباعد في حالة شكري على مستوى أساسيّ وغير مسبوق، هو خرقُ ميثاق **النوع الأدبيّ** بإنتاج كتابةٍ تقف في منتصف المسافة بين السيرة الذاتية والتخييل الروائيّ. لقد كتب شكري دائمًا على هامش الجنس الأدبيّ، منتهكًا لقوانينه ونواميسِه المحفوظةِ والمسلَّم بها. ولذلك اختار أن يَكْتب نصوصًا فحسب، أي حكيًا خالصًا لوجه الأدب، لا يَخْضع فيه إلاّ بمقدارٍ جدّ محدودٍ للسائد والمألوفِ في سُلّم الأنواع وتراتبيته المتداولة. وإذا ما نحن استثنيْنا روايتَه **السوق الداخلي** التي كتبها للتدليل على تملُّكه الأسلوبَ الروائيَّ الكلاسيكيّ، فإنّ مجموع أعماله حُرِّرتْ بعيدًا عن هاجس الانقياد لتعليمات الجنس الأدبيّ، تستوي في ذلك نصوصُه الروائية والقصصيةُ وتأملاتُه الفكرية والأدبية

ومن هنا فإنّ الذين أبدوْا تفهُّمًا واستيعابًا لهذا الأدب كانوا على معرفة وافية بمصدره، أيْ بالواقع المفارقِ فنيًا وجماليًا الذي يؤسِّس مقاربتَه. وهذا تحديدًا هو ما جَعَلَ أدبَ شكري يحافظ على وحدة كيانه والاستمرارِ في اجتراح الطريق الذي يقوده إلى مزيد من الاستقلالية والحرية في منازلة واقعٍ يَمُور بالتناقضات، وإلى مناهضةِ ما هو عابر فيه وظرفيّ ومصطنع، وأتاح له بالتالي أن يتملّك من القوة والتميز وهو يعيش في الظلّ أكثرَ مما يَمْلكه الأدبُ الآخرُ وهو مغمورٌ بالأضواء!

«الخبز الحافي» بين الراوي والناقد والمترجم والناشر

كان الكاتب الأميركيّ بول بولز (١٩١٠ ـ ١٩٩٩) الذي ينتمي إلى ما سُمِّي بـ «الجيل الضائع» قد استقرّ بطنجة أواخرَ الأربعينيات من القرن الماضي، مكرِّسًا حياتَه للكتابة والتأليف الموسيقيّ، صحبةَ زوجته الكاتبة جين بلز. وهناك التقى بطائفةٍ من الرواة الشعبيين الذين بَهَرَتْه قدرتُهم على الحكي بتلك الطريقة العفوية البالغةِ السلاسة والغرابة، الأمرُ الذي حفّزه على ترجمة بعض نصوصهم إلى الإنجليزية ونَشْرِها في المجلات الأدبية الأميركية والإنجليزية مقابلَ بعض الإكراميات الصغيرة.

ومن بين هؤلاء الرواة كان بول بولز يضع على الدوام محمد شكري في منزلةٍ خاصةٍ بسبب كونه متعلِّمًا أولاً ـ فقد تعوّد بولز العملَ مع أشخاص أميين من طينة الذين كانوا يَعْملون لديه خدمًا وطُهاةً وسوّاقًا وحرّاسًا شخصيين أمثال العربي العياشي ومحمد المرابط. ثم هناك شخصيةُ شكري المستقلّة، التي كانت تَمْنعه من قبول وضعية التابع. فضلاً عن أنّه ـ على ما كان عليه في شبابه من بوهيميةٍ وحياةٍ غير مستقرة ـ كان يَحْمل فكرًا قوميًا ووطنيًا لم يكن بولز ليستسيغه [1] يضاف إلى ذلك أيضًا أنّ شكري لم يكن بالنسبة إلى بولز «الدجاجةَ التي تبيض ذهبًا،» مثلَ

مواطنيْه العربي العياشي ومحمد المرابط، بل ظلّ شوكةً في حلقه إلى آخر أيامه، خاصةً بعد صدور كتاب شكري. **بولز وعزلة طنجة** (١٩٩٦) الذي سبَّبَ له الكثيرَ من الإيلام عندما نُقلتْ إليه بعضُ فقراته المستفزّة والجارحة.

ويَذْكر شكري في هذا الكتاب أنّ لقاءه الأول ببولز تمّ في أواخر الستينيات، عندما قدَّمه له الكاتبُ والمترجمُ الأميركيُّ، نزيلُ طنجة، إدوار روديتي. وكان روديتي قد أُعجب بحكايات صديقه شكري الشطّارية التي تنثال على لسان مخاطبه بعفوية وجسارة تبلغ حدَّ الفضائحية وعلى سبيل إشراك الآخرين في متعة هذه اللقيا سارع إلى نقل أمشاج منها إلى مواطنه بولز، ثم إلى الناشر الأميركيّ بيتر أوين الذي سبق أن أبدى رغبته في إعادة نشر **حياة مليئة بالثقوب** للعربي العياشي **وحب ببضع شعيرات** لمحمد المرابط، وهما من أهم رواة طنجة الذين تعامل معهم بولز. لذلك فما إنْ وقعتْ عينا هذا الأخير على شكري حتى بادر إلى سؤاله عن أحواله ونصوصه، ثم رحَّب على التوّ باقتراح أدلى به روديتي يناشده فيه ترجمةَ بعضِ قصصه إلى الإنجليزية. ولم تنتهِ الجلسةُ الأولى حتى كان الكاتبُ الشابّ قد تلقى دعوةً من الكاتب الكبير يَطْلب منه فيها تمكينَه من بعض النماذج لتكوين فكرة عن الموضوع. وفي مساء اليوم التالي حضر شكري إلى الموعد في الوقت المحدد ممسكًا بقصتين كتبهما باللغة العربية، وفي نيته أن يَعْرضهما على بولز بقصد تعريفه بعالمه الحكائيّ وإحاطته علمًا بمرجعيته الفكرية حتى لا يظنَّ به الظنونَ ويعاملَه معاملةَ «الرواة الأميين» ولكنّ بولز سيفاجئه برغبته المشبوبة في بدء عمل الترجمة فورًا اعتمادًا على اللغة الإسبانية التي كانا يشتركان في إتقانها. وكان الأمر يتعلق بقصتيْ شكري الشهيرتين «العنف على الشاطئ» و«بشير حيًا وميتًا،» اللتين ستصدران بعد ذلك بوقت طويل ضمن مجموعته القصصية الأولى **مجنون الورد**.

والواقع أنّ بولز لم يتكبّد مشقةً تُذْكر في مباشرته لترجمة قصص شكري: فقد كان الشابُّ القابعُ بجواره يَعْرف ما يريده من كلّ عبارة أو كلمة، وكانت إسبانيتُه تَعْمل كلغة وسيطة جيدة. ولكنّ غاية ما يكدِّر مزاجَ الكاتب الأميركيّ في تلك الساعات القلقة التي تنتابه هو حدسُه المبكّر بأنّ شكري لم يكن إطلاقًا «فريسةً سهلةً» كالرواة السابقين. وزاد الأمرَ استفحالاً أنّ طموح هذا الريفيّ «المتنطّع» لم يقف عند نشر القصص القصيرة والحصول على الإكرامية، فما أسرعَ ما لجأ إلى «الادّعاء» أمام بولز بأنّه توجد تحت يده سيرتُه الذاتيةُ في صيغتها النهائية، وبالتالي ليس أمامهما سوى الاتفاق على برنامج عملٍ للقيام بترجمتها أولاً بأول اعتمادًا على النص العربيّ «المكتوب.» وحقيقة الأمر أنّ شكريَ لم يتوفّر على نصّ مكتوب لسيرته ولا هُمْ يحزنون! ولكنّ روح المغامرة التي ظلت تسكنه على الدوام هي التي جعلته يعيد حكاية زميله القديم دوستويفسكي الذي لم يكن ليكتب روايتَه الذائعةَ الصيت، **المقامر**، لولا وقوعُه تحت طائلة الديون التي كانت ستقوده إلى السجن لو لم يقدِّمْ مخطوطةَ الرواية إلى الناشر في بحر الأيام الخمسة التي تفصله عن تاريخ الحجز. وإذ لم يكن شكري يتوفّر على نص مكتوب، فقد كانت أطرافُ سيرته تتردد على لسانه في جلسات السمر مع رفاقه، ولم يكن يَنْقصه إلا اتخاذُ قرار الجلوس من أجل ترجمتها إلى «نص.» وبالمناسبة، فقد أُتيح لي في صيف ١٩٧٧ بمدينة أصيلة أن أستمع إلى شكري يحكي أطرافًا من سيرته التعليمية بالعرائش، ولم أفاجأ قَطْعًا عندما قرأتُها حدثًا حدثًا ضمن كتابه الجميل **زمن الأخطاء**. كلُّ ذلك لأقول إنّ شكري، وهو «يقرِّر» تأليفَ **الخبز الحافي**، لم يختر مغامرةً غيرَ مأمونة، وإنما كان يضع اللبنةَ الخارقةَ والشديدةَ الالتباس التي ستنبثق عنها أعظمُ سيرةٍ ذاتيةٍ في المغرب الحديث، وربما في الوطن العربيّ إذا اعتبرنا عددَ الطبعات والترجمات وشعاعَ التداول.

ومهما يكن، فقد جرى توقيعُ عقد الترجمة والنشر على الفور مع الناشر بيتر أوين، ووُعِدَ شكري بتسلّم مائة جنيه كتسبيق عند الفراغ من الترجمة، وسنَعْرف أنّ هذا هو المبلغ الثابت والنهائيّ الذي سيناله نظيرَ سيرته الذاتية التي ستَظْهر في الولايات المتحدة الأميركية تحت

١ ـ كانت ظروف سعيدة قد قادت شكري منذ فترة شبابه إلى الإقبال على سماع إذاعة العرب القومية، ومطالعةِ الصحف والمجلات الآتية من الشرق فأتيح له بذلك أن يسمع ويقرأ عن تأميم القناة، والعدوان الثلاثيّ، والوحدة المجهَضة بين مصر وسوريا كما كان على بيّنة من حقيقة الصراع الذي يخوضه الوطنيون المغاربةُ ضد الاستعماريْن الإسبانيّ والفرنسيّ ثم وصلتْه الأصداءُ المدوّيةُ لنكسة حزيران ٦٧، فتأثَّرَ بكلّ ذلك قليلاً أو كثيرًا بينما من المؤكَّد أنّ شيئًا من تلك النوازل لم يكن قد بَلَغَ مسامعَ جماعة رواة بولز التي «شايعتْه» في إدارة الظهر للسياسة.

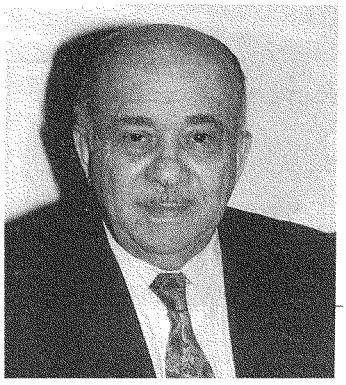

لماذا استنكف سهيل إدريس عن نشر سيرة شكري حين عرضها عليه محمد برّادة مترجمةً إلى العربية؟

عنوان: **من أجل الخبز وحده** (١٩٧٣). وسيواظب شكري نهارًا على تحرير سيرته باللغة العربية، منزويًا مع كأسه في ركنه المعهود بمقهى روكسي، لا يغادره إلا مع حلول المساء ليذهب إلى موعده المضروب مع بولز، حيث يعملان طرفًا من الليل في تخليق الصيغة الإنجليزية اعتمادًا على اللغة الإسبانية، قبل أن يتفرّغ بولز لرقنها على آلته الكاتبة فصلاً فصلاً، ودون تنقيح تقريبًا، فقد كان المترجم يأنف من التنقيح حفاظًا على التلقائية كما يَزْعم. وسيَظْهر كتاب **من أجل الخبز وحده** في طبعة أنيقة، ويلاقي الاحتفاءَ والترحيبَ اللائقيْن به في الأوساط الأدبية في أمريكا والمملكة المتحدة، فَيَشْعر بولز بأنّه خاض تجربةً جديدةً وجديرةً بأن تمكّنه من استعادة بعض الرضى الذاتيّ الذي كان قد بدأ يَفْقده مَن كثرةِ ما كيل له من انتقادات نَعَتْ عليه تقصيرَه في تعهُّد موهبته الأدبية وتكريسِ مطْلقِ وقته للعمل مع رواة طنجة ـ ومن بين منتقديه زوجتُه «جين.»

في بداية الثمانينيات، سوف تطّلع زوجةُ الناشر الفرنسيّ الشهير فرانسوا ماسپيرو على نسخة من هذا الكتاب، فتنبهر بعوالمه الحكائية وتفاجأ بجسارته الأدبية غير المسبوقة، فتقترح على زوجها ترجمتَه ونشرَه ضمن سلاسله. وهكذا يَنْتدب ماسپيرو صديقَه الكاتبَ المغربيّ المخضرم الطاهر بنجلون للقيام بهذه المهمة. ومن هنا ستنبثق الصيغةُ الفرنسيةُ لـ **الخبز الحافي** (١٩٨٠). ومن طريفِ ما يُذْكر بشأن هذا الكتاب أنّ النصّ العربيّ لن يَظْهر إلاّ بعد اشتهاره في العديد من اللغات التي تُرجم إليها في أعقاب صدور صيغته الفرنسية. وكان سهيل إدريس قد استنكف عن نشره في دار الآداب في السبعينيات (عندما عَرَضَ عليه محمد برادة مخطوطته العربية)، تحسُّبًا من الخوض في مغامرة غير مأمونة تُعرِّضه لغضب الرقابات العربية، وإنْ كان عَوَّضَه من ذلك بإقباله سنةَ ١٩٧٩ على نشر أول مجموعة قصصية له بعنوان **مجنون الورد** .. [تعليق الآداب: يقول سهيل إدريس إنّه لم يَنْشر **الخبز الحافي** لأنّه لم يعتبرها «رواية» بل سيرة، وإنّه نشر **مجنون الورد** قبل ذلك بفترةٍ طويلة]

خاتمة

ستكون كلمةُ الختام هاته مجردَ تحية رقيقة لرجل عاش زميلاً للحرمان والتسكع ومعانقةِ الأحلام المستحيلة، مشفوعةٍ بسؤال أظنُّه يشخِّص بعضَ وجود الكاتب الذي ودَّعناه: مَنْ قال إنّ البذرة الطيبة يمكن أن تنمو في مناخ موبوء؟

تلك هي مأساة محمد شكري. جاءنا حابلاً بالصفاء والبراءة ومخايلِ طفولةٍ وديعة، مسكونًا بحزن عميق يملأ القلبَ والعين. فمرّغناه في وحلنا اليوميّ، وألقمناه من صحن مباءتنا، وأسلمناه للرتابة والابتذال والعبث. فأيُّ مصيرٍ فاجعٍ لرجلٍ عاش راهبًا في محراب الأدب، وصعلوكًا في أرخبيل الحياة!

يأتيني صوتُ الناعي متهدِّجًا عبر أسلاك الهاتف، مضمَّخًا بالمرارة واللوعة يقول: «إنّ شكري قد وَدّع.. » لقد غافَلَنا وفَعَلَها أخيرًا. انسحب مجلَّلاً بالعزلة والحرج، كعادته، كأنّه يخشى أن يزعجنا بسلعته الصباحية ولا شكّ أنّه تعثَّر قليلاً في مشيته وهو يمضي مُوليًا ظهرَه لمجرّتنا

ها هو الرجلُ الرفيعُ القامة، الدقيقُ الملامح، النديّ النظرات، يَرْحل عنّا، زاهدًا في رفقتنا. يغادر بيته ومقهاه وأفيونَ الكتابة الذي استنزفه، مبارحًا إلى المدى الأبعد.. حيث البئرُ الأولى، والمرفأُ الأخير، وأطلالُ العشيرةِ الخاملة في بريةِ الله. كلُّ شيء انتهى الآن. أصبح شكري مقاومًا قديمًا في قبيلة الكلمات. نسيناه لحظةً، فانتزعتْه منا النائحاتُ

على هذا الإيقاع التراجيديّ نفسه ينهي شكري سيرته **الخبز الحافي** بسؤالٍ يوجِّهه الطفلُ الذي كانَه إلى والدته بشأن مصير أخيه الأصغر الذي خنقه الأبُ الفظُّ في لحظة غضب. فتجيبه الأمُّ وهي تداري فجيعتَها بأنّ الأطفال عندما يموتون يصبحون ملائكةً. فيأسف شكري لأنّه ببلوغه سنَّ الرشد قد فوّتَ على نفسه أن يكون ملاكًا!

الرباط

حسن بحراوي

ناقد وأستاذ جامعي في كلية الآداب بالرباط